

حَضَارَتُنَا ثَوْرَةٌ فِكْرِيَّةٌ

بِقِامِ عَادِلِ الْهَامِي

فهل لنا ان نجلس الى مائدة الانصاف نستعرض وهؤلاء المبهورين ببريق الغرب وحضارته ، نستعرض حضارة العرب ومثلها التي جحدوها وكانوا بانصافها اقمن واجدر ؟
ان هذا يقودنا الى استعراض سمات حضارتنا العربية وخصائصها الفكرية .

★

في مطلع القرن السابع الميلادي انبثق بين امة العرب كتاب جديد حمل اليهم فلسفة حياة جديدة متجددة ، راقية ، هو كتاب العربية الاول « القرآن » الذي فجر ثورة عقلية ، وارحص بحياة فكرية ، ستمتلى بعضها من آثارها بعد حين . ولم يكن هناك بد من اعلان القرآن هذه الثورة العقلية لتمهيد الطريق الى حياة فكرية جديدة ينعم العالم بها حينئذ غير قصير من الدهر .

وقبل استعراض مظهر هذه الثورة العقلية - في وجهها السلبى - لنعد قليلا الى ما قبل هذه الفترة نجوس خلال العالم في جولة حضارية، فنجد انه قد تحكمت في عقلية كثير من الامم موجة طافية من الشكليات والتقاليد حدت من انبعاثها وغلت خطأ تقدمها ، وقد تجلّى ذلك خاصة لدى الرومان وبعدهم البيزنطيين ، وامتدت هذه النزعة حتى القرون الوسطى ومطلع عصر النهضة في اوربا ، ولم تنج بقية اجزاء العالم من نير هذه النزعة الموقفة ، وان اختلف مقدار التأثير باختلاف نوعية الحضارة .

ومن الاقطار التي خضعت لنزعة الشكليات والتقليد والشيثات ومجافة التطور جزيرة العرب التي انبثق فيها قرآنا العربي ، فلا عجب اذا كان اول هدف رعى اليه القرآن هو تحرير العقل العربي من سلطان التقاليد والعادات الفكرية التي حجرت عقله ، وحجزته عن الانطلاق والاتصال بالمعارف الانسانية .

وقد سلك القرآن الى ذلك طريق المحاكمات العقلية والحجج المنطقية، وضرب الامثال وكل سبل الاقتناع ، ينفخ عن العقل غبار التقليد ، معالجا هذه النظرية الفكرية المعطلة لكل ابداع وابتكار ، ناعيا على التقليد وأهله ، محطما قنسية الموروثات في النفوس ، فكم من آية قرع فيها من عطلوا عقولهم وحبسوها على ما افوا عليه آباءهم دون تمييز او تمحيص او ادراك لسنة التطور : « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما افينا عليه آباءنا ، او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها . قل ان الله لا يامر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ » « الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » .

وعلى هذا النحو اخذ القرآن يستل اصول التقليد ، ومن ثم ينسف كل ما تبقى له من قنسية في النفوس ، فهب العربي حينئذ ليكشف عن عقله الفطاء ، وليسبح في اجواء المعرفة حرا طليقا .

هناك أزمة تفتت نفوس كثير من مثقفينا الذين درسوا في ديار الغرب، وهاموا بالحياة الغربية ، حضارتها ومثلها . انهم يعودون الى الشرق تضطرب في عقولهم مقارنة راهنة بين الشرق والغرب ، تتمخض بعد زمن يسير ، وبعد محاكمات عاجلة ، عن تفضيل كل ما يصدر عن الغرب من افكار ومثل واساليب . ليس الغرب هو السباق في مضممار الحياة الفكرية ؟ ليس هو الذي يصدر الى الشرق والبلاد المتخلفة الآراء والمذاهب ، بله المخترعات والالات ، ويخلب العقول والابصار بأفكاره وكواكبه الصناعية التي تشهد بتفوقه العلمي ؟ اذن فلتنك الحياة الغربية بكافة مظاهرها وجهتنا وقبلة افكارنا وآرائنا ، ان اردنا النهوض والسبق، ولناخذ عنها كل ما تصدر .. لناخذ كل شيء دون تردد او اصطفاء ، فما يصدر عن الغرب في ميدان الفكر الا كل حسن وراق ، وحذار من التطلع الى الماضي ، فان ارتداد البصر الى الخلف دليل على انصراف الفكر الى عهود متخلفة بالية ، لم تعد تجدي في عصر النور والتألق الحضاري ..

هذه الازمة يعيشها تلامذة الغرب هؤلاء قد عشت ابصارهم سواطع انوار حضارة الغرب فلم يبصروا سواها ، ولم يعشروا بحضارة حرية بالحياة ، بله الاحتذاء والاقتفاء ، الاها ، وهم يصبون جام غضبهم على كل من يفكر باستيحاء الحضارة العربية ومثلها ، للافادة منها في حياتنا الراهنة ، وان كان معظمهم ينصف الحضارة العربية ، ويكبر الدور الايجابي الذي أدته في المصور التي كانت تموج فيها اوربا في بحور الجهالة والظلام . وهؤلاء ليسوا المعنيين بحديثنا هنا .

ولكن الذي نستهدف في حديثنا هذا النفر القليل الذي ابى الا ان يغمط الحضارة العربية حقها بما فيها من كنوز ثقافية وخامات فكرية ، ويحمل في تفاعيف هجومه عليها جهلا واضحا فاضحا بما انتجه العرب من كنوز حضارية ، وكان على هذا النفر ، قبل التسرع بالهجوم على حضارة امته ، التزام الطريق العالمي الذي موازن بين الحقايق . بروح هادئة منصفة ، لا تحيز ولا تنعصب ، رائدها في ذلك العدالة والانصاف والاطلاع على كلا الاجاهين اطلاما متساويا ، وبعقل مستشرف متطلع منقّب عن الحقيقة .

وبعد ، أمن الكرامة او الوفاء لامتنا ، بله الروح العلمية ، ان نهدر كل مقوماتنا الفكرية الراقية وحضارتنا المشرقة المناققة ، فندفنها ونضحي ففراء من اي تراث او تاريخ حضاري ؟ ومن يصنع مثل هذا سوانا ؟ هل صنعت هذا اوربا بتراتها اللاتيني حتى نفتدي بها ام عكفت عليه تمثلا واحتذاء ؟ وبعد ليس الماضي الحضاري باعثا قويا على النهوض والانبعاث واعادة سيرة المجد الآفل ؟ واخيرا هل من الكرامة والمزة في شيء ان نقول ونردد - ونحن امة العدالة والحرية في الفكر والحكم - اننا لم نتنسم اريج حرية الفكر منذ الف عام ؟ ان من يقول هذا مفتقر الى دليل، وما لمسنا دليلا . اما الادلة على تمتع امتنا بحرية الفكر فتفوق الحصر وتملا اسفار التاريخ.

وما كان لتمسك به تقاليد فكرية جديدة بعد ان زودته مثل القرآن بالباديء العقلية المحطمة للتقليد والامادات الفكرية الا حينما عطل مصباح فكره في عصور الانحطاط .

ولم تحرر هذه البادىء العقلية المتجددة المتطورة الفكر العربي من جنابة التقليد المعطلة لاشعاع المعرفة والنور فحسب بل فرست فيه حرية التفكير واستقلال الشخصية ، وقد اثبت هذا المفكرون الغربيون انفسهم فهذا غوستاف لوبون يقول : « كانت لدى العرب الحرية في البحث - عكس البيزنطيين - وهي من اسباب تقدمهم السريع ، فلم يلبث ان تجلى استقلالهم الروحي الطبيعي ، وخيالهم وقوة ابداعهم في مبتكراتهم الحديثة . ولم يتقيد العرب في دراسة تلك الحضارة التي واجهتهم فجأة بمثل التقاليد التي أثقلت كاهل البيزنطيين منذ زمن طويل ، فكانت هذه الحرية من اسباب تقدمهم السريع (1) »

وعلى هذا النمط الراقى من التفكير ادرك علماؤنا معنى التطور في الحياة قبل علماء الغرب بعدة قرون ، فخرجوا الى عالم المعرفة بنظريات في التطور تخالفا من نتائج العصر الحديث ، رغم قصور ادواتهم وتخلف الامم من حولهم . فهوؤا « اخوان الصفاء » يضيئون للعالم طريق التطور في الكائنات الحية ثم يتخطون الى العادن والجوامد . يقول دريسر الامريكي في كتابه : « النزاع بين العلم والدين » :

« واننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر . ومن ذلك ان مذهب الشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهبنا حديثا ، كان يدرس في مدارسهم . وقد كانوا ذهبوا منه الى مدى ابعد مما وصلنا اليه ، وذلك بتطبيقه على الجامادات والعادن ايضا . »

وهذا « ابن خلدون » يسبق « كونت » بعدة قرون الى ادراك تطور الحياة البشرية فيحقق سبق العرب في علم الاجتماع ، وهو في الحقيقة اول عالم اجتماع بالمعنى الحديث يصف تطور المجتمعات والعوامل المختلفة التي تؤثر في ذلك التطور .

فهل توصم حضارتنا - بعد ذلك - بالجمود والركود ؟

اما مظاهر الثورة العقلية التي اثارها القرآن في الميدان الايجابي ، فتتجلى في آيات كثيرة جدا ، حتى انك لتجد اسم « العلم » يحتل مواضع كثيرة منه تناهز المائة ، اما مشتقات « العلم » فهي منثورة فيه اصعاف ذلك . ويطلق في ذلك كله على المعرفة المجردة .

اما ذكر العقل فيرد باسمه وافعاله في القرآن زهاء خمسين مرة عدا المدلولات العقلية الاخرى التي يزر بها .

وواضح ما في الحاج القرآن على ذكر العقل والعلم ومدلولاتهما من ايحاء ضمنى مبرز لاهية العقل والعلم والتفكير في المجتمع الفكري العربي وليس ادل على ذلك من قول النبي العربي : « الدين العقل ، ولا دين لمن لا عقل له . »

ترى ماذا صنع كتاب العربية الخالد وهو يحل العقل والتفكير هذه المنزلة ، بعد ان حطم سدود التقليد واسباب الجمود ، وفتح آفاق العرب العقلية واسعة مترامية الاطراف ؟ هل غل حربة الفكر وشمل ملكة التفكير - كما يحلو لنفر من تلامذة الغرب ان يرموا الدين ، والقرآن دستوره ورأس مراجعه ؟ هل امر بقسر الناس على اعتناق مثله وقيمه ، ضاربا بحربة الفكر عرض الحائط ؟

ان القرآن الذي تضمنه المشاء العربية الخالدة في حربة الفكر كان (1) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٧٢١ .

اسمى واعلى من ان يتجنب الطريق والذي رسمته مثله والسبيل الذي زرعه حروفه وكلمه في نصره العقل والفكر .

لقد نص جهارة على احترام ارادة الانسان وتفكيره وعقله بقوله : « لا اكراه في الدين » وهذا احترام مكر جدا لحرية العقيدة والفكر ، لم يبلغه العالم - في غير بلاد العرب - الا في زمن الثورة الفرنسية . ولا يزال نداء القرآن هذا اشعاعا خالدا لنور حرية العقيدة وحرية التفكير . هذه ثورة اليقظة العربية التي فجرها القرآن ، وفتح للعرب آفاق الفكر على مصاريعها ، فهل فتح الطريق ولم يزود الرواد بروائزه وفضاياه ؟ .

لقد اولى تنظيم الفكر وتنسيقه اهمية كبرى . فعمل على طبع العقل العربي على استيحاء النظام في تفكيره وآرائه وبحوئه ومخالجاته ، ويتجلى هذا في السمات العقلية الراقية التي اقام عليها اسس تفكيره وفيما يلي طرف منها :

(١) - النظر الكلي الشامل : فقر القرآن بامتنا قفزة رائعة من اشنات التصورات الواهمة الحائرة عن الحياة ، الى تصور كلي شامل عن الحياة وارتباطاتها وعلائقها ، في كافة جوانبها واحوالها ، سولي القرآن رسمها وتوضيحها فخرج العربي بعد تمثلها من حدود الصور الجزئية المحدودة الى التصور الشامل لقضايا الكون والحياة . وكان هذا منطلقه الى علوم العرب العقلية التي اسهمت في الحضارة الانسانية باكبر نصيب .

(٢) - النظر الموضوعي : وهو نقلة بعيدة ومبكرة جدا ، دفع الى تكوينه ضرورة تعرف المؤمن الى خالقه من خلال آياته وآلائه ، واعتماد الايمان البصر القائم على المشاهدة والتبصر ، الموصي بالمشاهدة المتيقنة عن طريق استخدام البصر مع العقل : « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق » . « اولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقضن . . » « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت . . » وكذا اعتماد الايمان الامر باستعمال السمع مع العقل : « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، او آذان يسمعون بها ؟ » واستعمال السمع والبصر مع العقل : « والله اخرجكم من بطون امهاتهم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » ، وفي الآية : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والنفوس كل اولئك كان عنه مسؤولا » ثلاثة اصول هي جماع اصول النظر العلمي :

الاول : الا تتبع الانسان الا الحق المعلوم بقينا . « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

الثاني : ان طريق الوصول الى هذا الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح :

فالبصر : طريق التجربة الحسية والمشاهدة .

والفؤاد : طريق التفكير والتمييز العقلي .

والسمع : اخذ الخبر الصحيح فيما ليس فيه تجربة او ما

لا يبلغ الا بالعقل .

الثالث : المسؤولية في الوصول الى الحق عن طريق هذه المشاهدة والتفكير الصحيحين : « كل اولئك كان عنه مسؤولا » (١)

ولقد ضرب لنا عمر الفاروق وكثير ممن تفاعلت عقولهم مع مبادئ القرآن العقلية النماذج الرفيعة الحية في المنهجية الواضحة والفكر

(١) - في آيات الله الكونية للفمراوي

ويستبد بنا الحيرة اذا ما استعرضنا حضارتنا ، ونكاد نقضي من العجب ونحن نقلب صفحاتها الزاخرة بالنهوض والازدهار الفكري، ثم نقرأ زعم نفر من تلامذة الغرب : ان امتنا لم تنعم بحرية الفكر ويقتضه منذ الفي عام .. ترى كيف تولدت حضارتنا ان لم تسعفها حرية الفكر ؟ .. وهل من الممكن ان تكون تحت كابوس كم الافواه ، وفي ظل الغفلة والركود ؟ ..

ان النتائج تقاس بمقدماتها ، وهذا ما يحتم ان حضارتنا الشامخة نشأت وازدهرت في بيئة فكرية راقية تشجع العلم وتتشوق المعرفة . وما بعض التصرفات في محاولة حمل نفر من العلماء على رأي دون آخر الا تصرفات فردية من بعض الحكام ، وفلتات عابرة ، لا تؤثر في الخط العام لحرية الفكر في تاريخنا .

اذا اردنا تقويم حضارتنا التي يصفها نفر من التيمين بحضارة الغرب بـ « الحضارة الشرقية الهزيلة » وينعت الشرق الذي ابدعها انه « قنع بتوصيل ارسطو كاملا الى الذهن الغربي وعد هذا انتصارا كونيا » .. علينا ان نطلع على الدور الذي ادته في مضمار الحضارات العالمية آنذاك ، وعلى اسلوبها المتفرد بين الحضارات . وهذا ما يجيبنا عنه اجابة واضحة ، مفكر منصف من الغرب نفسه وضع الحقيقة نصب عينيه ، فكان اكثر انصافا لحضارتنا من بعض انباء جلدتنا الذين حملوا الماويل مهملين حضارة امتهم .. قد جهلوا كنوزها فنبذوها وعقوها ورحم الله من قال : « عدو عاقل خير من صديق جاهل » ..

يقول غوستاف لوبون، مجليا اسلوب حضارتنا في عالم الفكر ودورها الخطير في تحضير العالم : « فالعرب بعد ان كانوا تلاميذ ممتددين على كتب اليونان ، لم يلبثوا ان ادركوا ان التجربة والترصد خير من افضل الكتب . فعلى ما يبدو من ابتدال هذه الحقيقة جد علماء القرون الوسطى في اوروبا الف سنة قبل ان يعلموها . يعزى الي « بيكن » على العموم ، انه اول من اقام التجربة والترصد ، اللذين هما ركن المنهج العلمية الحديثة ، مقام الاستاذ ، ولكن يجب ان يعترف السوم بان ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد ابدى هذا الرأي مع ذلك ، جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولاسيما « همبولد » فبعد ان ذكر العالم الشهير ان ما قام على التجربة والترصد هو ارفع درجة في العلوم قال : (ان العرب ارتقوا في علومهم الى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبا) ..

وقال مسيو ساندو (ان اهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها الصححة التي كانت سائدة لاعماليها ، فكان استخراج الجواهر من الملبوم والتدقيق في الحوادث تدقيقا مؤدبا الى استنباط الماسل من المعامات، وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة ، مبادئ قال بها اساتذة من العرب ، والعرب في القرن التاسع من الميلاد ، كانوا حائزين لهذا المنهج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول الى اجمل الاكتشافات) .

منهاج العرب قائم على التجربة والترصد ، واما درس الكتب والاقتضار على تكرار رأي العلم فقد سارت عليه اوروبا في القرون الوسطى ، والفرق بين النهجين اساسي ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية الا بتحقيق هذا الفرق . اذن اختبر العرب الامور وجربوها ، فكانوا اول من ادرك اهمية هذا المنهج في العالم فظلوا عاملين به وحدهم زمنا طويلا .

قال دولاير في كتاب « تاريخ علم الفلك » : « اذا استطعت ان

اليقظ ، فمن وصية عمر لفاض له : « الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك .. واعرف الامثال والاشباه ، وقس الامور عند ذلك ، ثم اعمد الى احبها الى الله واشبهها بالحق فيما ترى ، واجمل للمدعي حقا غائبا او بينه امدا ينتهي اليه .. (١)

(٢) - الفكر الملل : اثر القرآن في العربي القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول ، والسبب والمسبب بلقناته العقلية المتوالية ، وتدريبه على المحاكمة الصحيحة وتنسيق التفكير على اساس من التماس العلة في كل قضية وتطلب البرهان في كل شأن ، فلا يفرض عليه التسليم بعقيده ومثله ، بل يطلق له حبال التفكير ليستدل على وجود الله بالآية ، على قدرته بآياته ونعمائه ، فلا يؤمن الا عن يقين مبصر معلل : « ومن آياته انك ترى الارض خاشعة ، فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي احياها لمحي الموتى ، انه على كل شيء قدير » (افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ؟) « ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به ، فانما حسابه عند ربه ، انه لا يفاج الكافرون » . بهذه النصوص وامثالها التي يعج بها القرآن ثار في تفكير العربي الكاف والاهتمام بالتنقيب عن العلة في كل حدث والتماس البرهان والدليل في كل شأن . وهكذا غدا شعلة متقدة من النشاط والفعالية الفكرية تروي لنا اثاره الرائعة ألوف المؤلفات من نتاجه في شتى فنون الثقافة ، والوف الاحداث والوقائع في مختلف صروف الحياة .

(٣) - الفكر المتامل : ان النصوص القرآنية لتتري داعية الانسان الى تأمل الكون واستكناه اسراره واكتشاف خصائصه ، والى الكوف على النفس ، وادراك مميزاتها وسماتها وخبايها واسرارها ، ليرقى الانسان بهذا الى منزلة الايمان والفكر المتامل ، والمعرفة الحققة لدوافع الحياة ونوازعها وغايتها الاصيلية : « وفي الارض آيات للموقنين ، وفي انفسكم افلا تبصرون ؟ » « ستربهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » .

وهكذا افضت دعوة القرآن الى التعرف الى مجالي الكون واسراره بالعربي الى غرض فكري رائع ، يقع عليه لأول مرة ، الا وهو التفات الفكر والعقل الى تأمل هذا الكون وتكوين كل ما يمكن من الآراء والنظريات عنه ، والتقاط ما يحويه من مشاهد ، وما يكنه من اسرار ، وما ينطوي من كنوز وقوى وطاقات .

انها لخطوة ذات خطورة بالغة غرستها مثل القرآن في الفكر العربي ، فكانت المفتاح البصر لكثير من العلوم الكونية التي ستفتح آفاقها وتزدهر لدى علماء العرب ، وكثير من الاكتشافات الطبيعية التي يجلوها الفكر العربي بتأملاته العميقة ، وبحونه العقلية ، وخطراته الفكرية .

هذه طائفة من مبادئ الثورة العقلية اثارها القرآن في الحقل الايجابي بعد السلبي ، فأخذ بيد العربي في الطريق التي ولدت المباشرة من جوف الصحراء ، وانبثت المفكرين من بلاد الجذب والقحط ، ليرفخوا منارات العلم والحضارة ، وليهتفوا ببناء العقل في كل مكان .

هذا دور المثل العربية في بعث النهضة الفكرية المبكرة ، ووضع الاسس الفكرية لحضارة شامخة سامقة على ركائز من يقظة العقل وحرية التفكير ، وتنظيم الفكر على اسس العقل المنطقي والمنهجية الواضحة التي تملينا اثارها في نصوص كتاب العربية الاول «القرآن» .

كل هذا قبل ان يتصل الفكر العربي بالفكر اليوناني والافكار العالمية وقبيل ازدهار حضارته وتنوع ثقافته واتساع آفاقه .

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٩

تعد بين الاغريق راصدين او ثلاثة رأيت بين العرب عددا كبيرا من الرصاد (اما في الكيمياء فلا تجد مجربا يونانيا مع ان المجربين من العرب فيها يعدون بالآلاف .

واعتماد العرب على التجربة منح مؤلفاتهم دقة وابداعا لا ينتظر مثلهما من رجل تعود درس الحوادث في الكتب ، والعرب لم يتعدوا عسنا الأبداع الا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها على التجربة . ونشأ عن منهاج العرب التجريبي وصولهم الى اكتشافات مهمة . . . انجزوا في ثلاثة قرون او اربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الاغريق في زمن اطول من ذلك كثيرا ، وكان تراث الاغريق العلمي قد انتقل الى البيزنطيين فلم يستفيدوا منه منذ زمن طويل ، فلما آل الى العرب حوله الى غير ما كان عليه ، فتلقاه ورثتهم مخلوقا خلقا آخر .

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشرها كذلك بما اقاموه من الجامعات ، وما الفوه من الكتب ، فكان لهم الاثر البالغ في اوربا من هذه الناحية ، وسترى ان العرب وحدهم كانوا اساتذة الامم النصرانية عدة قرون ، واننا لم نطلع على علوم قدماء اليونان والرومان الا بفضل العرب ، وان التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل الى لغاتنا من مؤلفات العرب . الا في الازمنة الحاضرة (1).

هذا الاسلوب اسلوب التجربة والترصد ، الى السمات العقلية الراقية التي توفرت لحضارتنا ، بعث حضارة شامخة سابقة ادت دورا خالدا وخطيرا في مضممار الحضارات العالمية ، وكان لها الفضل الاكبر في ازدهار الحضارة الغربية الحديثة : « ففي الرياضيات عموما - اي العرب - الارقام الهندية وانشأوا علم الجبر ، وساهموا في استكمال المثلاث ، واتمام جدول اللوغارتمات .

وفي الفلك : دققوا في قياسات خطوط العرض ، وتعيين نقطة الاعتدال في طول الليل والنهار ، وزمان الكسوف والخسوف ، وادخلوا تحسينات كثيرة على آلات الرصد ، بحيث جاءت زبوج العرب اضبط مما سبقها . وفي الطب : آثروا معالجة الشلل والاسترخاء بالادوية المبردة بدلا من الحارة واستخدموا الماء البارد لقطع النزيف ، وبرعوا في جراحة العين ، واكتشفوا الدورة الدموية الصغرى ، واطفروا منافع التشريح . ولقد جروا في هذا العلم في اتجاه التخصص ، فكان منهم الجراح والاسناني ، والمعني بامراض النساء ، والمنقطع الى معالجة الاختلال العقلي . ومن المشهور عنهم السبق الى وضع كتب الادوية واستخدام المرقد (البنج) في العمليات الجراحية الكبرى . اما في الكيمياء : فقد كشفوا مركبات جديدة منها ماء الفضة (حامض النتريك) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) والبوتاس ، وملح البارود ، وحجر جهنم (نترات الفضة) ، وماء السليمان (كلور الزئبق) . وركبوا سائلا يمنع الخشب من الاحتراق ان هو طلي به ، وقد ابتدعوا الى ذلك طرقا حسنوا بها اساليب التقطير والصر والتبخير ، فاعتبروا بحق مؤسس علم الكيمياء الحديث .

ولئن كانت هذه العلوم قد تخطت المدى الذي اوصلها اليه علماء العرب الا ان فضلهم فيما ادوه في سبيل تقدمها ورفيها لم يطمسه التاريخ . ذلك ان فضل الامة في التقدم ايا كان ، ينبغي ان يقاس - كما اشار الاستاذ سارطن بحق - بما اضافت الى ما سبق . فكل كشف في علم ، او تحسن في اسلوب ، هو خطوة لا بد منها في سير العلم الى ما هو اتم واكمل . فاذا نحن اخذنا مآثر العرب بهذا الاعتبار ، تبين لنا ان

(1) - حضارة العرب لغوستاف لوبون .

العرب الذين حملوا لواء العلم ، عدة قرون ، فد ساهموا في تقدمه مساهمة فعالة . وشغلوا - بالتالي - مكانا مرموقا في تاريخ الفكر الانساني (1) .

« هذا الفكر العربي الذي نضج في الفلسفة وسائر العلوم ، اخذ يتسرب الى قلب العالم اللاتيني عن طريق صقلية واسبانيا - ولم يقف هذا الفكر في تسربه وانتشاره ، عند الحواجز الطبيعية الجارية ، بل تجاوز جبال الالب الى قلب اوربا ، واخترق سلسلة البيرية الى صميم فرنسا وعبر خليج المانش الى جزر بريطانيا . .

كذلك كان لعلومهم وفتونهم تأثير في ثقافة اللاتين وحضارتهم . فقد عملوا على نقل الكثير من آثار العرب العلمية ، وقلدوا الكثير من فنونهم وصناعاتهم . كان معتمدهم في علم الفلك على ما ترجم من مؤلفات المجريطي والتباني والزرقالي ، وعلى ما نقل من زبوجهم وتقاويمهم ، وكان رجوعهم في الرياضيات الى الخوارزمي وجابر بن أفلق ، وكان مرجعهم في الطب والكيمياء والعقاقير « قانون » ابن سينا و « كليات » ابن رشد و « حاوي » الرازي و « جامع » ابن البيطار ورسائل جابر بن حيان . وفي الطبيعيات كان اعتمادهم - لاسيما في البصريات - على ابن الهيثم . ونجد في الفلسفة الاجتماعية اثرا من ابن خلدون فيما اورده مكيفلي عن تأثير العوامل الطبيعية في نشأة العمران ، ودواعي انحلاله . كما نجد في الفلسفة الروحية اثرا من ابن العربي وابن سبعين في لاهوت القديس اوغسطينوس .

وكان للفنون العربية اثر في نهضة اللاتين . ففي الموسيقى نقلوا الى اللاتينية الكثير من الكتب التي وضعها العرب ، اشهرها كتاب للغارابي احله في تاريخ الموسيقى محلا مشرفا ، وفي الادب نجد من الاجمال الاسبانية والموشحات اثرا في الشعر البروفنساوي ، ونجد لقصة ابن طفيل اثرا في القصص الخيالي كما في ربنصن كروزو . وعند لافونتين شيئا من كيلة ودمنة ، وفي الكوميديا الالهية لونا من رسالة الغفران . هذا غير ما كان للعمارة العربية وفن الزخرفة والتزيق والحفر والتصنيع من آثار بارزة في الصناعة اللاتينية .

ولئن عز الدليل في بعض المواطن على ان اعلام النهضة اللاتينية قد اخذوا عن العرب ، ففضل العرب في السبق الى تلك المستنبطات والكشوف لا يهاري فيه ولا يرد ، يشهد على ذلك الكثير من التعابير العلمية والمصطلحات الصناعية ، وما نحتوه من اعلام الافلاك والرجا ، واسماء الادوات والسلع ، وما اقتبسوه من مظاهر العمران ذات الطابع الشرقي الخالص .

حمل العرب مشعل الفكر الانساني ستة قرون . كانت اوربا في غضوننا غارقة في ظلمة الجهل . بدأوا في ان احبوا الفكر اليوناني ، ثم عالجوه بالشرح والتعليق . حتى اذا نضجوا اخذوا في التأليف والوضع ، مستانفين السير بالعلوم من حيث اوصلها اليونان ، فبلغوا بها شأوا محمودا . ثم انهم اشتغلوا الى ذلك بمواضيع جديدة اختبروا حقائقها ، ووضعوا اصولها ، واستنبطوا لها القواعد ، واستخرجوا منها النواميس ، هياوا لها المصطلحات والتعابير . ثم اتاحوا هذا التراث الفكري لشعب فتي كان يهيم بالتهوض ، وهو الشعب اللاتيني « (٢)

هذا هو الدور الذي ادته حضارتنا ، استقلالية في التفكير ، واستاذبه للامم ، وسبق في عالم المعرفة ، واسهام فعال في بناء الحضارة

(١) معالم الفكر العربي للدكتور كمال اليازجي ص ١٠٢

(٢) معالم الفكر العربي للدكتور كمال اليازجي ص ٢٥٨ - ٢٦٤ .

حرية الفكر .

وحتى في عصور الانحطاط يبرز بعض علماء الامة ليثبتوا اصالة حرية الفكر - رغم الركود الفكري - امثال عز الدين بن عبد السلام فيتحدى سلطان المالك في الشام ومصر ويملي رأي الشعب الحر مضحيا بمنزلته الكبرى في الدولة ، متكيدا في سبيل ذلك الولايات والغربة والمشاق .

وفي مطلع العصر الحاضر يشور عدد كبير من مفكرينا بحكامهم مولعين حق الامة المقدس في حرية الفكر وهم اشهر من ان يعرفوا كجمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي ومصطفى كاهل .. وسواهم كثير . وعلى مدى العصور وفي عصرنا الحاضر شهداء لنا كثر في سبيل حرية الفكر وابطال مناظرون .

فهل بعد هذا لقاتل ان يقول : ان تاريخنا خلو من الابطال والشهداء في سبيل حرية الفكر ؟

وعجيب حقا ان يصل بتلاميذ الغرب هؤلاء الجهل ب « الحقيقة الدينية » الى درجة انكارها هكذا دون دليل يعتد به . مع ان الدين حقيقة ازلية ، ولازمة من لوازم الجماعة البشرية ، اعتنقتها البشرية منذ تفتحت عقول ابائنا للتفكير ، وهي حقيقة واضحة المعالم ، ساطعة الادلة ، يفسر بها المؤمن فلسفة حياته وسبب وجوده . هي في جلائها كالشمس وضوحا وبيانا تفرح بضيائها كل من درج على وجه الارض ، وما الايدي التي تمتد لحجبها الا كالفيوم والضباب الذي يحجب قرصها ، ولا يمنع نورها ، وبعد ساعات من نهار تعود - بعد تظاير السحب هباء - وضاحة مشرقة تهدي السالكين سبيل الصواب .

الايمان هو الاصل في اعتقاد البشرية منذ تفتحت مداركها للاعتقاد الصحيح ، والاحاد طاريء لايقف للحقيقة الاصلية التي يؤمن بها جلة البشرية . وما التيار الالحادي في عصرنا الحاضر بجديد ولكنه في

الانسانية . فهل هناك - بعد هذا - من يقول عنها انها حضارة هزيلة ؟ ام هل من الاطلاع في شيء على تاريخ الحضارة ان يوصم تشريعا - بعد هذا - بالبربرية والتأخر ؟ مع انه كان مصدرا رئيسيا للقانون المدني الفرنسي في القرن التاسع عشر ، حتى ان بعض مواد القانون المدني الفرنسي ترجمة حرفية عن بعض الايات القرآنية (١) .

وهو التشريع الذي قرر مؤتمر لاهاي ، ومؤتمر اسبوع الفقه الاسلامي في باريس ان « قيمته التشريعية لا يماري فيها وهي مناط الإعجاب والاستجابة لمطالب الحياة الحديثة » (٢) ولا يتسع المجال للافاضة في ذلك .

ومثل القرآن - مع هذا - تصدح بمبدأ الشورى « وأمرهم شورى بينهم » ، فليذكر نفر تلامذة الغرب هذا المبدأ ان كانوا يجهلونه ، وليمروا سراعا بتاريخنا ، فسيتؤمنون حيثئذ ان خيالهم يعكس لهم تاريخنا في مضمار السلطة والحكم المطلق .

ان العربي منذ فجر التاريخ لم يقبل بالضميم ولم يستكين لظلم السلطات ، واسفار تاريخه يعطرها ارج الدم المتوثب للحرية ونجيس الخلود . وهذا مثل من عشرات الوف الامثلة على ذلك :

دخل المفيرة بن شعبة على رستم كرسول لسعد بن ابي وقاص فهاه البذخ والترف الذي يسدر فيه رستم ، وفقر فاه دهشة من التفاوت الطبقي الذي يسود الفرس في هذا المجلس فقال : « قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام . ولا ارى قوما اسفه منكم (اكثر عبودية) . انا معاشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا ، لقد ظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسى .. فكان خيرا من الذي صنعتم ان تخبروني ان بعضكم ارباب بعض - وما دامت حالتكم على هذا فان هذا الامر لا يستقيم فيكم . واليوم علمت ان امركم مضمحل ، وانكم مغلوبون » فسرى الهمس بين جماهير الفرس بعد ان سمعوا بمعنى الحرية الذي حرك في نفوسهم كرامة الانسان قائلين : « صدق والله العربي ! » وقالت الدهاقين : « والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه . قاتل الله اوليائه ما كان احقهم حين يصفرون امر هذه الامة » .

هذه الحادثة في القرن السابع الميلادي وليست في القرن الثامن عشر - عصر الثورة الفرنسية - فهل نعفي على اسفار الحرية التي كتبنا سطورها وغربنا بذرتها ثم رعينا نبتها ، تنفيا البشرية ظلالها الوارفة ؟!

وظلت مثل القرآن - وبخاصة في عهود التفتح والنضج - تعمل عملها في تحرير وجدان الفرد والجماعة من كل عبودية حتى اكتظت سطور تاريخنا باسماء الرجال الابطال الذين نذروا انفسهم لخدمة الفكر والثقافة ، وجعلهم قمم شامخة في فنون المعرفة المختلفة ، لم تفلح محاولات نفر من الحكام الطغاة او المخالفين لهم في الرأي ، في نهيهم عن تفكيرهم الحر والحيولة دون اذاعة آرائهم التي امنوا بها ، فهؤلاء : سعيد بن جبير ، واحمد بن حنبل ، وابن تيمية ، وابن القيم الجوزية وكثير امثالهم منهم من قضى تحت العذاب ومنهم من كاد يقضي ، ليعودوا عن آرائهم ويعتقوا رأي - السلطة فكانت صلابه شخصيتهم واستقلال تفكيرهم للشعب منارا لحرية الفكر فاندفع في سبيل اتقادهم وهذا السرخسي يسجن في بئر لخروجه عن رأي السلطات فيحيل البئر الى اسطوانة علم يملئ من جوفها على طلابه الذين يتلقون مع العلم الفزير المثل الاعلى في

(١) - انظر كتاب المسؤولية والجزاء (لعلي عبد الواحد الوافي) .

(٢) - انظر المدخل الفقهي الى الحقوق المدنية لمصطفى الزرقا .

قصص

من منشورات دار الاداب

| | |
|----------------------------|-------------------|
| الدكتور سهيل ادريس | الدمع المر |
| الدكتور عبد السلام العجيلي | قناديل اشبيلية |
| صباح محي الدين | السنفونية الناقصة |
| الدكتور يوسف ادريس | حادثة شرف |
| فاضل السباعي | ضيف من الشرق |

دار الاداب

بيروت - ص.ب ٤١٢٣

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

بيروت شارع سوريا ص.ب. ٣١٧٦٠ تلفون ٢٧٩٨٣

تاريخ العلامات ابن خلدون

يسر دار الكتاب اللبناني ان ترف البشرية الهامة الى جميع وزارات التربية والتعليم وجميع المؤسسات الثقافية في البلدان العربية :

انها تعلن عن قرب انتهاء طبع الموسوعة الكبرى للعلامة ابن خلدون ، وقد انتهت الان من طبع المجلد السادس ، وقريبا جدا ينتهي طبع المجلد السابع . ان دارنا اذ تلقت انظار جميع هذه المؤسسات وجميع الادباء والعلماء في الاقطار العربية ان ثمن المجموعة الان مئة وعشر ليرات لبنانية تحت من يهمله امر اقتناء هذه الموسوعة على الاسراع بحجز مجموعته ، اما عن طريق الناشر رأسا او بواسطة المكتبات الكبرى في العالم العربي ، مع العلم بان ثمن المجموعة الكاملة سوف يصبح عند انتهاء الطبع ، اي بعد مضي ثلاثة اشهر متتسين وعشرين ليرة لبنانية .

هذا وقد صدر حتى الان ثلاثون جزءا ، ولم يبق الا ثلاثة اجزاء فقط ، ونلفت نظركم ايضا الى الفهارس العلمية الهامة والى ان النسخ محدودة .
فبادروا الى اقتناء نسخكم .

كل عصر يمثل الجداول الجافة المنقطعة عن نبع الانسانية الاصيل ، فما عرفت عصور تاريخ البشرية امة تغلبت فيها نزعة الاحاد على عقيدة الايمان - حتى في العصر الحاضر الذي نلني فيه دعاة الاحاد قلة في كل امة حتى في ديار الغرب التي يريد تلامذته جرنا الى ظلام الاحاد باسمه .

« ان العقيدة الدينية هي فلسفة الحياة بالنسبة الى الامم التي تدب بها ... ان الايمان ضرورة كونية لا تخلقها مشيئة احد من الاحاد ، ولو كان في قدرة الرسل والانبياء . فاذا اجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم في الجنس والزمن والموطن والمصلحة - فليس هذا عمل فرد ، ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضا وانفاقا من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنه باعث من صميم قوى الكون ، لا يفلح الرسل والانبياء في نشر دعوته ما لم يكن في تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق ، وسر التكوين ..

ان اسرار العقيدة اعمق واصدق مما يدور باوهام منكريها ، وانها ذخيرة من القوة وحوافز الحياة ، تمد الجماعات البشرية بزيادة صالح لا تستمدنها من غيرها ، وان هذه الذخيرة (الضرورية) خلقت لتعمل عملها » (١).

واخيرا اذا تمدر على العقل اثبات حقيقة من الحقائق ، لم تتعارض معه ، فليس يعني ذلك نفي العقل لها . والحقيقة الدينية حقيقة تنفق مع العقل ، او لا تتعارض معه . لذا فانكفاء البعض عن الوصول الى مستوى الحقيقة الدينية بعقله فقط - ذي الوسائل المحدودة مهما بلغ من الرقي - ما كان ليخدش في قيمة الحقيقة الدينية .

ولا بد في الختام من تجلية شبهة طالما عقدت سحب الضباب امام انظار نفر تلامذة الغرب - فهم قد قصروا معارفهم تقريبا على ما اتى به الغرب متجاوبين مع تاريخه وازماته تجاوبهم مع مثله وافكاره ، وقد نشأ الصراع في اوربا بين العلم والدين لان الكنيسة هناك احتضنت نظريات معينة وادعت بانها حقائق مقدسة وانها كلمة السماء ، وقادت حملة التعذيب والتخريب للعلماء والمفكرين الاحرار الذين خالفوا آراءهم الاسطورية ، واستنكروا فرض الاوهام والخرافات التي كانت تقدمها باسم الدين وكان لا بد للشعب ان يبلل في سبيل تحرره الفكري كل ما يستطيع من تضحيات فحطم سلطان رجال الدين ، وكفر تبعا لذلك بالدين - كما صور له رجال الدين - .

هذا في اوربا ، اما في شرقنا العربي فام يحصل اي صراع او نزاع بين العلم والدين ، ولا يمكن ان يحصل ، فلقد مر معنا جليا كيف ولدت مثل القرآن الدنسة ذاتها المبادئ العقلية التي بعثت الحضارة العربية وقد تحدنا عنها بما فيه الغناء . هذا الى جانب ان ظروف الغرب لم يكن ما يشابهها في شرقنا العربي .

وابسط الحقائق التاريخية ، واقل ما يتطلبه الواجب العلمي هو ادراك هذا الفارق الشاسع بين طبيعة الدين في الشرق وطبيعته في الغرب ، وظروفهما التاريخية المختلفة ، وحقيقة دور كل منهما في مجال العلم والمعرفة ، قبل القيام بأي تميم ينظم الحقيقة ويطلق الاحكام الخاطئة دون دراية وتمحيص .

عادل الهاشمي

دمشق